معتقده

فصل فى اختلافهم فيه .

« « معتقده فى الله .

« « معتقده فى النبوات والرسل .

obeikandl.com

obeikandl.com

فصل فى اختلافهم فيه

لم يختلف الناس فى رجل اختلافهم فى أبى العلاء ، ولا تراوحوا بشخص بين الكفر والإيمان تراوحهم به . فلا غرو إذا قضى مثل هذا التناقض على الباحث فى أمره ألا يتلقى كل ما قيل عنه بالقبول ، وأن يجنح إلى مقارنة ما نطق به بما نقل عنه ؛ توصلا إلى حكم بات فيه ؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقد تأملت المختلفين فيه ، فوجدتهم على ثلاثة أقسام :

فريق متزندقون ، يُكفِّرونَه ويحبونه لكفره ، ومنهم متفرنجة هذا العصر ؛ أو مؤمنون يبغضونه لذلك .

وفريق يذهبون إلى صحة إيمانه ، وربما تغالوا فألحقوه بالأولياء الواصلين ، وروَوْا له الكرامات .

وآخرون متحيرون أمسكوا عنه ، ووكلوا أمره لخالقه .

وأنا بادئ بذكر أقوالهم فيه ، ثم معقبها بما ثبت من أقواله ؛ مقسمة إلى فصول ، كما فعلت بأخباره . فأقول :

ذكر غير واحد أنه كان متهماً فى دينه ، وأنه اجتاز باللاذقية ونزل ديراً كان به راهب له علم بأقاويل الفلاسفة ، فسمع كلامه ، فحصل له بذلك شكوك . واستدلوا أيضاً على إلحاده بتجافيه عن أكل الحيوان خمساً وأربعين سنة ، قالوا : وهذا من اعتقاد الحكماء المتقدمين ؛ لأنهم يرون فى ذبح الحيوان تعذيباً له . وسيأتى الكلام على ذلك فى فصل مستقل . ونقلوا عن تلميذه أبى زكريا التبريزى أنه قال : قال لى المعرى مرة : ما الذى تعتقد ؟ فقلت فى نفسى : اليوم أقف على اعتقاده . فقلت له : ما أنا إلا شاكٌّ . فقال : وهكذا شيخك . وقال فى حقه

الباخرزى فى دُمْيَة القصر : « ضرير ماله فى أنواع الأدب ضريب ، ومكفوف فى قميص الفضل ملفوف ، ومحجوب خصمه الألد محجوج . وقد طال فى ظلال الإسلام أَناؤه ، ولكن ربما يترشح بالإلحاد إناؤه ؛ وعندنا خبر بصره ، والله أعلم ببصيرته ، والمطلع على سريرته ؛ وإنما تحدثت الألسن بإساءته ، ككتابه الذى زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنونه بالفصول والغايات ، ومحاذاة السور والآيات ، وأظهر من نفسه تلك الخيانة ، وجذّ تلك الهوسات كما يُجَذ العَيْرُ الصليانة ، حتى قال فيه القاضى أبو جعفر قصيدة أولها :

كلب عوى بمعرّة النعمان ... لما خلا عن ربقة الإيمان

أمعرة النعمان ما أنجبت إذ ... أخرجت منك معرّة العميان »

انتهى .

وممن حكم بزندقته شمس الدين الذهبى ، وأطال فى ترجمته ، وذكر له فيها قبائح . قال الصفدى : وأظن الحافظ السِّلَفِيّ قال إنه تاب وأناب . وتحامل عليه أبو الفداء فى تاريخه ، وغضّ منه كثيراً ؛ حتى اضطر ابن الوردى للرد عليه . وفى الكوكب الثاقب أن القاضى المنازى دخل عليه فذكر مايسمعه من الطعن فيه ، ثم قال : مالى وللناس ، وقد تركت لهم دنياهم ، فقال المنازى : وأخراهم أيضاً ، فقال : ياقاضى ! وأخراهم أيضاً . وجعل يكررها . وفى هذه الرواية تحامل من المؤلف ؛ فقد رواها ابن خلكان فى ترجمة المنازى على أنه قال له : والآخرة أيضاً ، وجعل يكررها ، ويتألم لذلك ، وأطرق ، فلم يكلمه إلى أن قام .

ونقل ياقوت عن رسالة الغفران أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أجلى أهل الذمة عن جزيرة العرب شق ذلك على الجالين ، فيقال : إن رجلا من يهود خيبر ، يعرف بسمير بن أدكن ، قال فى ذلك :

يصول أبو حفص علينا بِدِرَّةٍ رُوَيْدَكَ ؛ إنّ المرءَ يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حَمُولة مأقط لتشبع ؛ إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتمُ علينا ؛ ولكن دولةٌ ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المين فاعرفوا لنا رتبة البادى الذى هو أكذب
مشيتم على آثارنا فى طريقنا وبغيتكم فى أن تسودوا وتُرْهَبُوا

ثم قال ياقوت : وهذا يشبه أن يكون شعره ، قد نحله هذا اليهودى ؛ أو أن إيراده لمثل هذا ، واستلذاذه به ، من أمارات سوء عقيدته ، وقبح مذهبه . انتهى .

والعجب من ياقوت ، كيف يزعم هذا الزعم ، ومن أين أتى له أن هذه الأبيات من شعره ، أو أنه أوردها استلذاذاً بها ، وهو إنما جاء بها فى أثناء كلامه على الزنادقة وتقبيح أعمالهم . وأحرِ أن يكون إيراده لها فى عرض إنكاره عليهم ، من أبين الأدلة على حسن عقيدته . وليست رسالة الغفران ببعيدة على من يريد تحقيق ذلك .

وسئل فتح الدين بن سيد الناس : ما كان رأى الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد فيه ، فقال : كان يقول : هو فى حيرة . فقال الصفدى : وهذا أحسن ما يقال فى أمره ؛ لأن فى كلامه تناقضاً كثيراً . وإلى الله ترجع الأمور .

هذا ما وقفت عليه من كلامهم فى سوء عقيدته ؛ إلا قليلا منه سيرد عليك فيما يأتى من الفصول .

ونقلوا عن رسالة ابن العديم أنه قال : إنى اعتبرت من ذم أبى العلاء ومن مدحه ، فوجدت كل من ذمه لم يره ولا صحبه ، ووجدت كل من لقيه هو المادح له .

وقال ابن الوردى بعد ما أورد مراسلاته مع القاضى أبى الطيب الطبرى التى

مرّ ذكرها فى أخباره : « وشهادة أبى الطيب فى الشيخ مقدمة على شهادة الغير وحسن الظن خصوصاً بالعلماء قد دل عليه القرآن والحديث ، وهو لا يأتى إلا بخير . وكان شيخنا عبس حسن العقيدة فيه ؛ واعتراف الطبرى له ومدحه يكفيه .

شهادة الطبرىّ الحَبْرِ كافيةٌ أبا العلاء فقل ما شئت أو فذر
من أغمد السيف عنه كان فى دعة ومَنْ نَضى السيفَ قابلناه بالطَّبَرِ »

انتهى كلامه . وقوله : قابلناه بالطبر فيه تورية ، والطَبَرُ هو الطبرزين معرب ، ومعناه : فأس السرج ؛ لأن فرسان العجم كانت تحمله معها تقاتل به ، ويقال له عندهم التَّبَر . كذا ذكر المُحِبّى فى « قصد السبيل ؛ فيما فى اللغة العربية من الدخيل » .

ونقلوا أيضاً عن رسالة ابن العديم المذكورة أنه قال : قرأت بخط أبى اليسر شاكر المعرى فى ذكره ، وكان رضى الله عنه يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل ، ويعمل تلاميذه وغيرهم على لسانه الأشعار ، يضمنونها أقاويل الملحدة ؛ قصداً لإهلاكه ، وإيثاراً لإتلاف نفسه ، فقال رضى الله عنه :

حاول إهوانىَ قوم فما واجهتهم إلا بإهوان
وحرشونى بسعاياتهم فغيّروا نيةَ إخوانى
لو استطاعوا لوشوا بى إلى السمريخ فى الشهب وكيوان

وقال أيضاً :

غريت بدمّى أمّةٌ وبحمد خالقها غريت
وعبدت ربّى ما استطعت ومن بريّته بريت
وفرتنىَ الجهّال حا سدة علىّ وما فريت

سعروا عليّ فلم أحـــسّ وعندهم أنى هريت

قال الصفدى : « أما الموضوع على لسانه ، فلعله لا يخفى على مَنْ له لُبٌّ . وأما الأشياء التى دوّنها ، وقال بها فى لزوم مالا يلزم ، وفى استغفر واستغفرى ، فما فيه حيلة . وهو كثير ، فيه ما فيه من القول بالتعطيل والاستخفاف بالنبوات . ويحتمل أنه ارعوى وتاب بعد ذلك كلّه . وحُكِىَ لى عن الشيخ كمال الدين ابن الزملكانى أنه قال فى حقّه : هو جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت » . انتهى كلام الصفدى . قلت : أما استغفر واستغفرى فلم أقف عليه ؛ فإن كان ما فيه يشبه ما فى لزوم ما لا يلزم ، فسيرد عليك ما يزيل الشك فيه .

وقال ابن الوردى فى تاريخه : « وأنا كنت أتعصب له لكونه من المعرة ، ثم وقفت له على كتاب استغفر واستغفرى فأبغضته ، وازددت عنه نفرة ، ونظرت له فى كتاب لزوم مالا يلزم ، فرأيت التَّبَرى منه أحزم ؛ فإن هذين الكتابين يدلاّن على أنه كان لما نظمهما عالماً حائراً ، ومذبذباً نافراً ، يقرّ فيهما أن الحق قد خفى عليه ، ويودّ لو ظفر باليقين فأخذه بكلتا يديه ؛ كما قال فى مرثية أبيه :

طلبت يقيناً من جهينة عنهم ولم تخبرينى ياجهين سوى الظنّ

فإن تعهدينى لا أزال مسائلا فإنى لم أعط الصحيح فأستغنى

ثم وقفت له على كتاب « ضوء السقط » الذى أملاه على الشيخ أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهانى ، الذى لازم الشيخ إلى أن مات ، ثم أقام بحلب ، يروى عنه كتبه ، فكان هذا الكتاب عندى مصلحاً لفساده ، موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده ؛ فإنه كتاب يحكم بصحة إسلامه مؤلا ، ويتلو لمن وقف عليه بعد كتبه المتقدمة (وللآخرة خير لك من الأولى) ؛ فلقد ضمن هذا

الكتاب ما يثلج الصدر، ويلذ السمع، ويقر العين، ويسر القلب، ويطلق اليد، ويثبت القدم ؛ من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير بريته، والتقرب إلى الله بمدائح الأشراف من ذريته، وتبجيل الصحابة، والرضا عنهم، والأدب عند ذكر ما يتلقى منهم، وإيراد محاسن من التفسير، والإقرار بالبعث والإشفاق من اليوم العسير، وتضليل من أنكر المعاد، والترغيب فى أذكار الله والأوراد، والخضوع للشريعة المحمدية وتعظيمها. وهو خاتمة كتبه، والأعمال بخواتيمها. وقد يعذر من ذمّه، واستحل شتمه، فانه عوّل على مبادى أمره، وأوسط شعره ؛ ويعذر مَنْ أحبه، وحرّم سبّه، فانه اطلع على صلاح سرّه، وما صار إليه فى آخر عمره ؛ من الإنابة التى كان أهلها، والتوبة التى تَجُبُّ ماقبلها. وكان يقول رحمه الله : أنا شيخ مكذوب عليه. » . انتهى كلامه بنصه .

قلت : وليس فى لزوم ما لا يلزم ما يصل بالإنسان إلى حد التبرى منه، كما ذكر الشيخ، والبيتان اللذان رواهما من مرثية أبيه لا يدلان على ماذهب إليه، وإنما مراده أن علم الغيب محجوب عنه، فلا يدرى عن أبيه : أهو فى شقاء أم نعيم، وهما مثل قوله من هذه القصيدة :

جَهِلْنا فلم نَعْلَمْ على الحرص ما الذى يُرَادُ بنا والعلم لله ذى المَنِّ

قال شارحه أبو يعقوب النحوى : « وهذا على معنى أن أمر السعادة والشقاوة مطوى عن العباد، وأن الأمور كلها بمشيئة الله تعالى، وهى مستورة ؛ ولهذا كره السلف أن يقول القائل : أنا مؤمن حقا، بل أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ؛ لا على معنى الشك فى الإيمان والاعتقاد، بل على معنى الخوف من سوء العاقبة، وخفاء علم الله تعالى فى ذلك، وانطواء أمر الخاتمة » . انتهى .

وذكر ابن الوردى فى تاريخه أيضاً : أن حسّاده أغروا به وزير حلب، فجهز

حضاره خمسين فارساً ليقتله ، فأنزلهم أبو العلاء فى مجلس له بالمعرة ، فاجتمع
عمه إليه ، وتألموا لذلك ، فقال : إن لى ربا يمنعنى ، ثم قال كلاما منه مالا يفهم ،
ال : الضيوف ، الضيوف ! الوزير ، الوزير ! فوقع المجلس على الخمسين فارساً فماتوا ،
قع الحمام على الوزير بحلب فمات ؛ فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ،
نهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده . وهذه القصة رواها صاحب الكوكب
اقب بزيادة تفصيل ، فذكر عن الغزالى أنه قال حدثنى يوسف بن على بأرض
ركار ، قال : دخلت معرة النعمان ، وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب
يه بأن المعرى زنديق لا يرى إفساد الصور ، ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء
عقل ، فأمر محمود بحمله إليه من المعرّة ؛ وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم
و العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان ، وقال : يا ابن أخى قد
لت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك
كان عاراً علينا عند ذوى الذمام ، ويَرْكَبُ تَنُوخَ الذلُّ والعار ، فقال : هوّن
ليك يا عمّ ، ولا بأس عليك ؛ فلى سلطان يذب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى
ى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر إلى المريخ أين هو ؟ فقال : فى منزلة كذا
كذا . فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد فى رجلى خيطا ، واربطه إلى الوتد .
فعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ، يا علة العلل ، يا صانع
لمخلوقات ، وموجد للموجودات ؛ أنا فى عزك الذى لا يرام ، وكنفك الذى
لا يضام ، الضيوف الضيوف ، الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا
هدة عظيمة ، فسأل عنها ، فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها ،
قتلت الخمسين . وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر :
لا تزعجوا الشيخ ، فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف بن على : فلما شاهدت

ذلك ، دخلت على المعرّىّ فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار ، فقال : زعموا أننى زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى علىّ أبياتا من قصيدة أولها :

أستغفر الله فى أمنى وأوجالى من غفلتى وتوالى سوء أعمالى

ثم ساق صاحب الكوكب الثاقب سبعة أبيات من هذه القصيدة . وسأوردها بتمامها عند الكلام على منظومه ؛ فإنها من شعره المفقود . وهذه القصة رواها غير واحد ، فلم يذكروا رصده للمريخ كما هنا ، وهو الأشبه بمذهب أبى العلاء ؛ فإن من يقف على كلامه فى المنجمين وتقبيح أعمالهم ، يحكم بأن هذا من الموضوع عليه . والله أعلم .

والخلاصة أن الذى ظهر لى من مطالعة مؤلفاته ، أنه لم يكن ملحدا كما يزعمون ، بل كان مؤمناً بالله وكتبه ورسله ، وإنما كانت تقع له بعض الأحيان أحوال يضيق بها صدره ، فينفث نفثات يوهم ظاهرها ، وكان الأولى به تركها . وهى مهما بلغت من الشناعة والبشاعة لا تصل إلى الكفر والإلحاد ، بل فيها ما إذا قارنته بما قاله فى ضده لظهر لك جليا أنه لم يرد ما سبق إلى ذهنك فيه من أول وَهْلةٍ ؛ كإنحائه تارة على الديانات ، ومدحه لها تارة أخرى ؛ فإنك لو قابلت بين القولين بإمعان ، لأقنعت بأنه لم يرد بالذم الديانات نفسها ، بل أراد منتحليها المتاجرين بها ، وكثير ماهم فى كل زمن .

وإنما أُتِىَ الرجل من جهة حسدته وشانئيه ، وولوع جماعة منهم بتقويله مالم يقل ، وإشهاره بما كانوا ينظمونه على لسانه من أقوال المعطلة والزنادقة ؛ حتى صارت الأذهان لكثرة ما وقر فيها من ذلك ، إذا ألقى إليها شىء من شعره فيه إيهام ، انصرفت إلى إساءة الظن به . وسيرد عليك من أقواله ما وافق أقوال مشهورى المتصوفة ، وكبار الزهاد ، حذوَ القُذَّة بالقُذَّة . إلا أنها

ثبت لهم ، وكتبت عليه ، ولله فى خلقه شؤون . ولهـذا اقتصرت فى فصول نقده على ما أثبته فى مؤلفاته دون ما رُوى عنه غير معزوّ لشيء منها ، وغالبه خافات يتنزه شعر أبى العلاء عنها ، ولا يخفى وضعها على ذى لبّ ، كما قال سفدى . كنسبتهم إليه قول القائل :

إذا ما ذكرنا آدماً وفعاله وتزويجه بنتيه لابنيه فى الخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا

وهذا كلام لا يصدر إلا من معتوه فقد رشده ، وحاشا لأبى العـلاء أن كونه . ولا يخلو قائله من أحد أمرين : إما أن يكون مقرًّا بالشرائع ، عالما بأن واج الأخ بأخته لم يكن محرماً فى شريعة سـيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ، يكون قوله هذا ضرباً من الهذيان والهوس . وإما أن يكون منكراً لها ، فيكون كره الزنا لا معنى له ، فإن معرفة الحـلال والحرام لا تتأتى إلا من الشرائع . ضلا عما فى البيتين من بذاءة وقلة أدب تنبو عنهما نفس أبى العـلاء . ولست نكراً أنه ذكر سيدنا آدم عليه السلام فى لزوم مالا يلزم بمـا كنت أحب له دم ذكره ، إلا أنه لا يبلغ فى شناعته إلى هذا الحد ؛ وغاية ما فيـه لومه عليه سلام على أكله من الشجرة ، وتسببه فى أذى ذريته فى الدنيا بخروجـه من لجنة . وسيأتى الكلام على ذلك فى فصل مستقل . وقد رد على هذين البيتين لقاضى أبو محمد الحسن بن أبى عقامة اليمنى بقوله :

لعمرك أمّا فيك فالقول صادق وتكذب فى الباقين مَن شَطّ أودنا

كذلك إقرار الفتى لازم له وفى غيره نفو كذا جاء شرعنا

وليت القاضى تثبّت من نسبة البيتين قبل تكلفه الرد بهذا الشعر الركيك . ونسبوا إليه أشياء أخرى من هذا القبيل أضربْت عن ذكرها تفاديا عن

الاشتغال بالعبث ، إلا أن ألم ببعضها إلماما فيما يأتى من الفصول لمناسبة . كما أنى لم أتعرض لما أخذ عليه فى سقط الزند ؛ لأنه لا يخرج عن كونه من الغلو الواقع لكثير من الشعراء ، وقد كفانا مؤونة البحث فيه بقوله فى خطبته :

« وما وجد لى من غلو علق فى الظاهر بآدمى ، وكان مما يحتمله صفات الله عز سلطانه ، فهو مصروف إليه ، وما صلح لمخلوق سلف من قبل أو غبر أو لم يخلق بعد ، فإنه ملحق به ، وما كان محضا فى المَيْن لا جهة له ، فأستقيل الله العثرة فيه »

وقد أورد شارحه فى التنوير بعض أبيات من ذلك فى شرح الخطبة . ومما لم يذكره قوله ، وهو عندى أشنع ما فى سقط الزند :

باهَتْ بمَهْرَةَ عدنانًا فقلت لها   لولا الفُصَيْصِيُّ كان المجد فى مضر

فهذا ولا ريب من محض المَيْن الذى لا جهة له ، وقد استقال الله العثرة فيه ، والله يغفر لمن يشاء . وما عداه ليس فيه شىء سوى الغلوّ المفرط . على أنه لم يأت به إلا فى أبيات معدودة لا تتجاوز العشرة ، ولكن القليل من هذا كثير . وعندى أن لا وجه لاغتفاره لقائله ، وفى غيره من الكلام مندوحة عنه .. ولعله سرى لأبى العلاء من أبى الطيب المتنبى ؛ فقد كان ولوعا بهذا النوع . ومنه قوله :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه   لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفُه   فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه   ما انشق حتى جاز فيه موسى

سامح الله أبا الطيب ، ما كان أغناه عن هذا الغلو الممقوت ، مع قدرته على نظم ما هو أوقع فى النفوس ، وأخف على الأسماع ؛ وأقبح منه قبول ممدوحه له ، وإجازته عليه . ولا أدرى ما كان عذر المعز فى قبوله قول ابن هانئ :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

اللهم إلا أن يكون ما نقل عن القوم من دعوى الألوهية فى الباطن صحيحا .

وما فى سقط الزند دون هذين القولين بمراحل .

وقد رأيت أبا العلاء شدد النكير على ابن هانئ وأضرابه فى رسالة الغفران ، واستقبح منهم مثل هذا الغلو ، فلعله رجع عنه .

وقد عقد الثعالبى فصلا فى يتيمته لما أخذ على أبى الطيب ، جاء فيه بأشياء ممجوجة . ومع هذا فلم يلهجوا بإكفاره كما فعلوا مع أبى العلاء ؛ وذلك لما وقر فى النفوس من شهرته بالزندقة ، كما ذكرت آنفا ، حتى كادوا يلصقون به كل شعر من هذا القبيل . وقد رأيت بعضهم يروى له قول المتنبى :

أَغَايةُ الدِّين أن تُحْفُوا شواربكم يا أُمَّةً ضحكت من جهلها الامَمُ

هذا وديوان أبى الطيب مشهور متداول فى الأيدى ، فما ظنك بغير المشهور ؟

وكذلك أبو نواس لما كان مشهورا بالإجادة فى وصف الخمر ، نسبوا إليه فيها ما لم يقله ، فكثر المنحول فى شعره . ونقل عن بعض العلماء أنه كان يقول : أوشك هؤلاء الرواة أن ينسبوا للمجنون كل شعر فيه ليلى . وقوله هذا ينبغى للأديب أن يتنبه له ، فلا يقدم على نسبة قول لقائل بسبب اسم اشتهر به ، ولهج بذكره ، فى شعره ؛ فقد كان للشعراء أسماء شائعة بينهم خفت على ألسنتهم ، وحلّت فى أفواههم ، فكانوا كثيرا ما يأتون بها زورا ، نحو : ليلى ، وهند ، وسلمى ، ودعد ، ولبنى ، وعفراء ، وأروى ، وريّا ، وفاطمة ، ومية ، وعلوة ، وعائشة ، والرباب ، وجُمل ، وزينب ، وأشباههن . ذكر ذلك ابن رشيق ، ثم قال : وأما عزة و بثينة فقد حماها كثيّر وجميل ، حتى كأنما حرمتا على الشعراء . انتهى .

وكما اشتهر بعض الشعراء بأسماء ، اشتهر غيرهم بفنون وأنواع غلبت عليهم ، وسهلت على نفوسهم ، فأجادوا القول فيها ؛ كأبى نواس فى الخمر ، والبحترى فى

الطيف ، وابن المعتز فى التشبيهات ، وديك الجن فى المراثى ، وأبى الطيب فى الأمثال والحكم ، وابن الرومى فى الهجاء . بل رأيت بعض شعراء غلبت عليهم ألفاظ استعملوها كثيرا ، كأم دَفر عند المعرى ، وابن ودّى عند الأمير محمود سامى باشا البارودى . ومن تتبع شعر كل شاعر ، ربما لا يعدم أمثالها فيه .

فيكون اقتصارنا على ما أثبته أبو العلاء فى مؤلفاته ، أدعى إلى الإنصاف ، وأبعد عن الاعتساف .

* * *

واعلم ، أرشدك الله ، أنى لم أنتصر له فى بعض المواضع جنوحا إلى عصبية ، أو استرسالا مع هوى . ولكنى وقفت فى الكثير من أقواله على اعتقاد صحيح ، وإيمان ثابت لا يخالطه شك . فكان تأويل ما عداها بما يحتمله اللفظ ، أولى من التسرع إلى إكفار مؤمن ، والحكم عليه بالزندقة ؛ خصوصا وأن ما يدل على إيمانه صريح فى لفظه ، والذى يوهم محتمل لوجهين ، فحمله على ما يوافق الصريح من أحد وجهيه أحق وأصوب . فإذا رأيت شيئاً من ذلك فلا تتسرع فى الإنكار علىّ ، بل عليك بتحسين الظن ، ومراجعة النظر ، تجد ما قلته غير بعيد . وحسبك ما أثاروه على الإمام أبى حامد الغزالى فى قوله : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، حتى وضعوا فيه المؤلفات ، وشغلوا الناس بالترهات . ولا شك أنه لم يُرد بقوله هذا ما ذهبوا إليه وتأولوه . وأى مسلم يخالجه ريب فى عقيدة هذا الإمام ، وهو حجة الإسلام ؟

ولله درّ أبى العلاء حيث يقول :

جِوَارُكَ هـذا العالَمَ اليومَ نكبةٌ ... عليكَ وليس البَيْنُ عنه مُيَسَّرا

سيَعْلَمُ ذاكَ المُدَّعِى صِحَّةَ الهُدَى ... متى كانَ حَقٌّ أَيْنَمَا كانَ أَخْسَرا

ويقول :

لحى اللهُ قوماً إذا جئتهم ... بصدق الأحاديث قالوا كَفَرْ

ويقول :

أما فى الأرض من رجلٍ لبيبٍ ... فيفرق بين إيمان وكفر

وقال أيضاً :

لا تقيد لفظى علىّ فإنى ... مثـــل غيرى تكلمى بالمجاز

ومثله قوله :

وليس على الحقائق كلّ قولى ... ولكن فيه أصناف المجاز

فصل فى معتقده فى الله

من زعم أن أبا العلاء كان من منكرى وجود الإله جل وعلا ، فقد زعم باطلا ، وأسرف فى الشطط ، ودلّ على جهله بحقيقة معتقده . وهيهات أن تنهض له حجة ، أو يجد لزعمه مستندا ، لو طالبناه بالدليل .

ونحن مثبتون فى هذا الفصل من أقواله ما ليس وراءه متسع لطاعن ، أو مجال لمتقول ، وبادئون منها بثلاثة أقوال ، ربما خفى المراد منها على كثيرين ، فأوّلوها على غير ما ينبغى أن تؤول ، ثم نتبعها بما يكشف الرين عن عقيدة الرجل فى خالقه .

* * *

أولها قوله :

قُلْتُمْ لَنَا صَانِعٌ حَكِيمٌ قُلْنَا : صَدَقْتُمْ ، كَذَا نَقُولُ
زَعَمْتُمُوهُ بِلَا مَكَانٍ وَلَا زَمَانٍ أَلَا فَقُولُوا
هَذَا كَلَامٌ لَهُ خَبِيٌّ مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لَنَا عُقُولُ

وليس فى هذه الأبيات إنكار لوجود الإله ، وحسبك منها قوله : « قلنا صدقتم ، كذا نقول » ، لكن يؤخذ من ظاهرها إثبات الزمان والمكان له تعالى ، وهو ما لا يقول به إلا المجسّمة وأضرابهم ، تنزه الله عما يقولون . وقد ذكر صاحب معاهد التنصيص أن الفخر الرازى أورد هذه الأبيات فى كتابه الموسوم بالأربعين ، وأعقبها بقوله : « وقد هذى هذا فى شعره » ، وقد وقفت على نسختين من هذا الكتاب فلم أجده قال ذلك ، فلعل العبارة تحرفت على صاحب المعاهد ، فتوهم

نها ما ذكره . ولما كان المقام يحتاج إلى تفصيل لاستيضاح ما يرمى إليه بو العلاء ، اقتضى أن ننقل إليك عبارة الأربعين ، ثم نعقبها بما ظهر لنا فى هذه لأبيات . قال «الفخر» فى مبحث حدوث العالم ، و إيراد شبهات المخالفين وردها :

« السؤال الرابع : إذا قلنا كان الله موجودا فى الأزل ، وسيكون موجودا فى الأبد ، فقولنا كان يفيد أن أمرا كان موجودا وحاصلا ، وقد انقضى وما بقى . ويكون يفيد أن أمرا سيصير موجودا وحاصلا ، و بعدُ ما حصل . فإذن كل ما يصدق عليه أنه كان وسيكون ، فهو محكوم عليه بكونه متجددا متغيرا ، فذات الله تعالى لما كان واجب الدوام ، ممتنع التغير ، وجب أن لا يصدق عليه ألبتة أنه كان فى الأزل ، وسيكون فى الأبد ، وأنه كائن الآن . ثم لما جربنا عقولنا وجدناها حاكمة بأن كل ما لا يصدق عليه أنه كان قبل وسيكون بعد وأنه كائن الآن ، فهو عدم محض . وعند هذا قال المنكرون إنكم لما أثبتم ذاته منزهة عن الجهات والأيون والأوضاع ، خرج هذا الإثبات عن العقل ، واقترب من العدم المحض ؛ ثم إنكم لما أثبتموه منزها عن أن يصدق عليه قولنا كان ويكون وهو كائن ، فهذا تصريح بالعدم المحض . فإن أدخلتموه تحت قولنا كان و يكون وهو كائن ، اقتضى ذلك الحكم بكونه متجددا متغيرا ، فكيف الخلاص من العقد المحيرة ، والمضايق المضلة المعمية . ونظم المعرى هذا المعنى فى شعر له فقال . . . » انتهى .

ثم أورد الأبيات ، إلا أنه روى مكان قوله « زعمتموه » ، « ثم زعمتم » وشرع فى الرد على هذا السؤال . فقال :

« الجواب عن السؤال الرابع : وهو قوله إن كل ما يصدق عليه كان ويكون فهو متجدد متغير ، فنقول : المراد من قولنا كان ويكون استمراره مع الأزمنة

الآتية والأزمنة الماضية ، من غير أن يكون متغيرا بحسب تغير هذه الأزمنة ؛ وهذا المعنى لا يدركه إلا العقل الذى نوره الله تعالى بنور هدايته ، وإن كان الوهم والخيال يعجزان عنه . » . انتهى كلامه .

ثم ساق حجج المشايخ على بقاء الصانع بما يخرج عن قصدنا هنا .

ولا يخفى ما فى قوله إن هـذا المعنى لا يدركه إلا العقل الذى نوره الله بنور هدايته . فإذا علمت هذا ، ثم علمت أن مذهب السلف رضى الله عنهم فى الصفات النقلية ، كالاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا ونحوها ، أنها صفات ثابتة وراء العقل ما كلفنا إلا اعتقاد ثبوتها والتصديق بها من غير تفسير ولا تأويل ، مع اعتقاد عدم التجسيم والتشبيه ، لئلا يضادّ النقل العقل — ظهر لك أن عبارة أبى العلاء إنما ترمى إلى هذا المعنى ، وتشير إلى هذا القصد ؛ فمراده أن مثل هذه الأمور لا تتسع العقول لإدراكها ، بل هى مما استأثر الله بعلمه . وليس فى الأبيات ما يمنع من حملها على ذلك . بل كيف يتصور فى الرجل اعتقاد التجسيم ونحوه ، وهو القائل فى موضع آخر :

تَعَالَى اللهُ وَهْوَ أَجَلُّ قَدْرًا مِنَ ٱلْإِخْبَارِ عَنْهُ بِالتَّعالِي

ومن يذهب فى التنزيه إلى هـذا الحد لا يتصور فيه اعتقاد التجسيم . ثم اعلم أن مذهب السلف يرجحه كثيرون من المتكلمين . وكان الإمامان مالك والزهرى يقولان به ، بل هو عقيدة الإمام أحمد بن حنبل وأتباعه إلى يومنا هذا . وإنما رجحوه لما فيه من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى ، وهو الأوفق لحمل العامة عليه ، صيانة لعقولهم عن الزلل ، كما فصله الإمام الغزالى فى « إلجام العوام ، عن علم الكلام » . وقد وقفت على فصل للفخر الرازى فى تفضيل هذا المذهب ، ذكره فى تفسيره الكبير عند قوله تعالى : « ثُمَّ ٱسْتَوَى

عَلَى العَرْشِ » ، مع أن هذا الإمام من كبار الأشعرية القائلين بالتأويل .

ولله در الإمام خميس بن على الواسطى حيث يقول :

تَرَكْتُ مَقَالَاتِ الْكَلَامِ جَمِيعَهَا ... لِمُبْتَدِعٍ يَدْعُو بِهِنَّ إِلَى الرَّدَى

وَلَازَمْتُ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ لِأَنَّهُمْ ... دُعَاةٌ إِلَى سُبْلِ الْمَكَارِمِ وَالْهُدَى

وَهَلْ تَرَكَ الْإِنْسَانُ فِي الدِّينِ غَايَةً ... إِذَا قَالَ قَلَّدْتُ النَّبِيَّ مُحَمَّدَا

على أن كثيرا من أئمة الكلام أيضا يرجحون مذهب الخلف فى تأويلهم هذه الصفات تأويلا يليق بجلال المولى عز وجل ، لما فى هذا المذهب من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم . ولكل من أصحاب المذهبين وجهة لا يريدون بها إلا الوصول إلى الحق ، فرضى الله عنهم أجمعين ، وجزاهم عنا أحسن الجزاء .

الثانى من الأقوال : قوله :

أَمَّا الإِلٰهُ فَأَمْرٌ لَسْتَ مُدْرِكَهُ ... فَاحْذَرْ لِجِيلِكَ فَوْقَ الْأَرْضِ إِسْخَاطَا

وليس فى هذا أيضا إنكار لوجود الله تعالى ، وإنما فيه الإيماء إلى عجز البشر عن إدراك كنه ذاته تعالى . ولعمرى ما نطق إلا بالصواب . وأين لمخلوق ضعيف لا يصل إلى إدراك كنه نفسه من الوصول إلى هذا المقام ؟ وفى كتاب تأييد الحقيقة العلية للسيوطى ، قال شارح منازل السائرين فى بيان عجز العقول عن إدراك الذات المقدس ، وترك الفكرة فى ذلك : « يعرف العبد أن عقله يعجز عن إدراك كل الموجودات من المخلوقات فضلا عن خالقها ، وقد عجزت العقول عن إدراك الخاصية التى يجذب بها المغناطيسُ الحديد ، والسَّقَمُونيا الأخلاطَ الصفراوية ، إلى غير ذلك ، مع القطع بوجودها . فإذا عرف العبد عجزه ؛ وأيس من الوقوف على غاية مطلبه ، حمله ذلك على التمسك بحبل التعظيم والإجلال ، وسلم بذلك من الوقوع فى شىء من الاختلال . » . انتهى .

وفيما نقل عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أنه كان يقول : « التوحيد أن لا تتوهمه » ويقول : « كل ما أدركته فهو غيره » . وكان الصدّيق رضى الله عنه يقول : « يا من غاية معرفته القصور عن معرفته » . أما قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ » ، فالأكثرون على حمل البصر هنا على الجارحة ، من حيث إنها محل القوة . وقيل هو إشارة إلى ذلك وإلى الأوهام والأفهام . فالبيت على هذا عَقْدٌ لمعنى هذه الآية الكريمة . وقريب منه قوله من قطعة أخرى :

وإنَّ إلٰهى إلٰهُ السَّما ءِ رَبُّ ٱلْوُهُودِ وَرَبُّ النَّبَكْ
سَأَلْتُ ٱلْمُحَدِّثَ عَنْ شَأْنِهِ فما زَالَ يَضْعُفُ حَتَّى ٱرْتَبَكْ

* * *

الثالث : قوله :

مَتَى عَرَضَ ٱلْحِجَا لِلّٰهِ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ عَلَيْهِ وَإِنْ عَرُضْنَهْ

ومعناه ظاهر بَيِّن ، يشبه ما فى القول السابق . وقد فسره بعضهم بقوله : « أى لا يزال عقل الإنسان يتسع مجاله فى الأمور ، ويستعمل أنواع القياس ؛ حتى ينتهى إلى الله تعالى . فإذا انتهى إليه ضاقت المذاهب عليه ، فلم يعلم أكثر من أنه سبحانه خالق المخلوقات . » . انتهى .

وقد أحسن أبو العلاء فى قوله بعد هذا البيت :

وَقَدْ كَذَبَ ٱلَّذِى يَغْدُو بِعَقْلٍ لِتَصْحِيحِ ٱلشُّرُوعِ وَقَدْ مَرِضْنَهْ

الشروع : جمع شرع . قال بعض الفضلاء : « مَرَضُ الشرائع أن تخفى أسبابها ، فلا يُوقَفُ على حقائقها ، فيظن الناظر فيها أنها فاسدة ، وإنما الفاسد عقله ، لأنه تعاطى سرًّا غامضا ليقف عليه . » . انتهى .

قلت : فليت المتبجحين كل يوم بإصلاح الدين الإسلامىّ ليوافق روح العصر كما يزعمون ، ينظرون نظرة فى هذا البيت ، نسأل الله لنا ولهم الهداية .

* * *

وبعـد ، فليس فى كلام أبى العلاء ما يوهم نقصا فى حق الخالق سبحانه وتعالى ، فضلا عن إنكار وجوده ، غير هذه الأقوال الثلاثة . وقد عرفت أنها ليست فى شىء من ذلك ألبتة . فلم يبق إلا أن نسرد لك عيون أقواله الدالة على حسن معتقده فى خالقه . قال :

لِلْمَلِيكِ الْمُذَكَّرَاتُ عَبِيدٌ وَكَذَاكَ الْمُؤَنَّثَاتُ إِمَاءُ
فَالْهِلَالُ الْمُنِيفُ وَالْبَدْرُ وَالْفَرْ قَدُ وَالصُّبْحُ وَالثَّرَى وَالْمَاءُ
وَالثُّرَيَّا وَالشَّمْسُ وَالنَّارُ وَالنَّثْ رَةُ وَالْأَرْضُ وَالضُّحَى وَالسَّمَاءُ
هَـذِهِ كُلُّهَا لِرَبِّكَ مَا عَا بَكَ فِي قَوْلِ ذَلِكَ الْحُكَمَاءُ
خَلِّنِي يَا أُخَيَّ أَسْتَغْفِرُ اللَّـــهَ فَلَمْ يَبْقَ فِيَّ إِلَّا الذِّمَاءُ

وقال :

إِذَا قِيلَ لَكَ اخْشَ اللَّـ ـهَ مَوْلَاكَ فَقُلْ : آرَا

آرا : كلمة فارسية ، معناها : نعم . وقال :

بِعِلْمِ إِلٰهِي يُوجَدُ الضَّعْفُ شِيمَتِي فَلَسْتُ مُطِيقاً لِلْغُدُوِّ وَلَا الْمَسْرَى
غَبَرْتُ أَسِيرًا فِي يَدَيْهِ وَمَنْ يَكُنْ لَهُ كَرَمٌ تُكْرَمْ بِسَاحَتِهِ الْأَسْرَى
أَأُصْبِحُ فِي الدُّنْيَا كَمَا هُوَ عَالِمٌ وَأَدْخُلُ نَارًا مِثْلَ قَيْصَرَ أَوْ كِسْرَى
وَإِنِّي لَأَرْجُو مِنْهُ يَوْمَ تَجَاوُزٍ فَيَأْمُرُ بِي ذَاتَ الْيَمِينِ إِلَى الْيُسْرَى
وَإِنْ أُعْفَ بَعْدَ الْمَوْتِ مِمَّا يَرِيبُنِي فَمَا حَظِّيَ الْأَدْنَى وَلَا يَدَيَ الْخُسْرَى

اليسرى هنا : من اليسر ضد العسر ، وليست من اليسار ضد اليمين . وقال :

اللهُ لَا رَيْبَ فِيهِ وَهْوَ مُحْتَجِبٌ ... بَادٍ وَكُلٌّ إِلَى طَبْعٍ لَهُ جَذَبَا

وقال :

لَا تَكْذِبَنَّ فَإِنْ فَعَلْتَ فَلَا تَقُلْ ... كَذِباً عَلَى رَبِّ السَّمَاءِ تَكَسُّبَا

فَاللهُ فَرْدٌ قَادِرٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ ... تُدْعَى لِآدَمَ صُورَةٌ أَوْ تُحْسَبَا

وَإِذَا انْتَسَبْتَ فَقُلْتَ إِنِّيَ وَاحِدٌ ... مِنْ خَلْقِهِ فَكَفَى بِذَاكَ تَنَسُّبَا

وفى معنى البيت الثانى قوله من قطعة أخرى :

مَا زَالَ مُلْكُ اللهِ يَظْهَرُ دَائِباً ... إِذْ آدَمٌ وَأَبُوهُ فِي الْإِضْمَارِ

لعله أراد بأبيه : التراب الذى خلق منه ، وفى بعض النسخ : و بنوه ، وهو ظاهر .

وقال :

وَلَمْ يَحْبُنِي أَحَدٌ نِعْمَةً ... وَلَكِنَّ مَوْلَى الْمَوَالِي حَبَا

نَصَحْتُكَ فَاعْمَلْ لَهُ دَائِباً ... وَإِنْ جَاءَ مَوْتٌ فَقُلْ مَرْحَبَا

ومن طمعه فى عفو ربه ، قوله :

أَرَى الذَّنْبَ مِرْآةَ اللَّبِيبِ وَمَنْ يَكُنْ ... مَرَائِيهُ الْإِخْوَانُ يُصْدَقْ وَيُكْذَبِ

أَأَخْشَى عَذَابَ اللهِ واللهُ عَادِلٌ ... وَقَدْ عِشْتُ عَيْشَ الْمُسْتَضَامِ الْمُعَذَّبِ

ومثله قوله :

وَمَا أَنَا يَائِسٌ مِنْ عَفْوِ رَبِّي ... عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمْدٍ وَسَهْوِ

ومثله قوله أيضاً :

لِمَ لَا أُؤَمِّلُ رَحْمَةً مِنْ قَادِرٍ ... وَالسُّولُ يُطْلَبُ فِي السَّحَابِ الْأَسْوَلِ

وقال يذكر خوفه من العقاب :

طُوبَى لِمَوْءُودَةٍ فِي حَالِ مَوْلِدِهَا ... ظُلْمًا فَلَيْتَ أَبَاهَا أَلْفَظَّ مَوْءُودُ
يَارَبِّ هَلْ أَنَا بِالْغُفْرَانِ فِي ظَعَنِي ... مُزَوَّدٌ إِنَّ قَلْبِي مِنْكَ مَزْءُودُ

وقريب منه قوله :

قَدْ فَنِيَ الْوَقْتُ فَمَا حِيلَتِي ... إِذَا انْقَضَى الْإِمْهَالُ وَالْمَهْلُ
إِنْ خَتَمَ اللهُ بِغُفْرَانِهِ ... فَكُلُّ مَا لَاقَيْتُهُ سَهْلُ

وقال فى خوفه وطمعه :

أَمَّا الحَيَاةُ فَلَا أَرْجُو نَوَافِلَهَا ... لَكِنَّنِي لِإِلٰهِي خَائِفٌ رَاجِ
رَبُّ السَّمَاكِ وَرَبُّ الشَّمْسِ طَالِعَةً ... وَكُلِّ أَزْهَرَ فِي الظَّلْمَاءِ خَرَّاجِ

ولله دره حيث يقول :

لِيَفْعَلِ الدَّهْرُ مَا يَهْوَى بِهِ ... إِنَّ ظُنُونِي بِخَالِقِي حَسَنَهْ
لَا تَيْأَسُ النَّفْسُ مِنْ تَفَضُّلِهِ ... وَلَوْ أَقَامَتْ فِي النَّارِ أَلْفَ سَنَهْ

وقال :

أَرَى انْكِفَاتِي إِلَى الْمَنَايَا ... أَغْنَى عَنِ الْأُسْرَةِ الْكِفَاةِ
أَثْبَتُ لِي خَالِقًا حَكِيمًا ... وَلَسْتُ مِنْ مَعْشَرٍ نُفَاةِ

وقال :

سُبْحَانَ مَنْ بَرَأَ النُّجُومَ كَأَنَّهَا ... دُرٌّ طَفَا مِنْ فَوْقِ بَحْرٍ مَائِجِ
لَوْ شَاءَ رَبُّكَ صَيَّرَ الشَّرَطَيْنِ مِنْ ... هَذِي الْكَوَاكِبِ عِنْدَ أَدْنَى ثَائِجِ
وَالتَّاجُ تَقْوَى اللهِ لَا مَا رَصَّعُوا ... لِيَكُونَ زَيْنًا لِلْأَمِيرِ التَّائِجِ

وقال من أخرى :

فَزِعُوا إِلَى ذِكْرِ الْمَلِيكِ وَحَسْبُهُمْ ... أُنْسًا بِذَلِكَ فِي الضَّمِيرِ الوَالِجِ

وقال :

أُحَاذِرُ السَّيْلَ وَمَنْ لِي بِمَنْ جَاهٍ إِذَا أَسْمَعَنِي رَعْدَهْ
وَالْوَقْتُ لَا يَفْتَأُ فِي مَرِّهِ مُقَرِّبًا مِنْ أَجَلٍ بُعْدَهْ
فَرَاقِبِ الْخَالِقَ بِالْغَيْبِ فِي الْـ قِيمَةِ وَالنِّيمَةِ وَالْقِعْدَهْ

أراد الهيئة من القيام والنوم والقعود ، فجاء بها على فِعْلة بكسر الأول . وهو عقد لمعنى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ » ومعنى الآية ، والله أعلم : الذين لا يغفلون عنه تعالى فى عامة أوقاتهم ، كما ذهب إليه بعض المفسرين .

وقال أبو العلاء :

إِذَا كُنْتَ مِنْ فَرْطِ السَّفَاهِ مُعَطِّلاً فَيَا جَاحِدُ اشْهَدْ أَنَّنِي غَيْرُ جَاحِدِ
أَخَافُ مِنَ اللهِ الْعُقُوبَةَ آجِلاً وَأَزْعَمُ أَنَّ الْأَمْرَ فِي يَدِ وَاحِدِ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمُلْحِدِينَ تَعُودُهُمْ نَدَامَتُهُمْ عِنْدَ الْأَكُفِّ اللَّوَاحِدِ

ليت شعرى كيف يُرْمَى بالإلحاد من يخاطب الملحدين بمثل هذا الكلام ؟

وفيهم يقول أيضاً :

أَمَّا الْمُجَاوِرُ فَارْعَهُ وَتَوَقَّهُ وَاسْتَعْفِ رَبَّكَ مِنْ جِوَارِ الْمُلْحِدِ
لَيْسَ الَّذِي جَحَدَ الْمَلِيكَ وَقَدْ بَدَتْ آيَاتُهُ بِأَخٍ لِمَنْ لَمْ يَجْحَدِ

ويقول :

إِذَا مَا أَلْحَدَتْ أُمٌّ بِجَهْلٍ فَقَابِلْهَا بِتَوْحِيدِ السُّيُوفِ
كَأَنَّا فِي سَجَايَانَا نُقُودٌ كَثِيرَاتُ الْبَهَارِجِ وَالزُّيُوفِ
وَهَذِي الْأَرْضُ لِلْمَلِكِ الْمُرَجَّى نُلِمُّ بِهَا كَإِلْمَامِ الضُّيُوفِ

وقال :

تَعَالَى اللهُ كَمْ مَلِكٍ مَهِيبٍ   تَبَدَّلَ بَعْدَ قَصْرٍ ضِيقَ لَحْدِ
أُقِرُّ بِأَنَّ لِي رَبًّا قَدِيراً   وَلَا أَلْقَى بَدَائِعَهُ بِجَحْدِ

وقال :

بِوَحْدَانِيَّةِ ٱلْعَلَّامِ دِنَّا   فَذَرْنِي أَقْطَعُ ٱلْأَيَّامَ وَحْدِي
سَأَلْتُ عَنِ ٱلْحَقَائِقِ كُلَّ قَوْمٍ   فَمَا أَلْفَيْتُ إِلَّا حَرْفَ جَحْدِ
سِوَى أَنِّي أَزُولُ بِغَيْرِ شَكٍّ   فَفِي أَيِّ ٱلْبِلَادِ يَكُونُ لَحْدِي

وقال :

وَلَقَدْ وَجَدْتُ وَلَاءَ قَوْمٍ سُبَّةً   فَاصْرِفْ وَلَاءَكَ لِلْقَدِيمِ ٱلْمُوجِدِ

وقال :

يُسَمُّونَ بِٱلْجَهْلِ عَبْدَ الرَّحِيمِ   وَعَبْدَ ٱلْعَزِيزِ وَعَبْدَ الصَّمَدْ
وَمَا بَلَغُوا أَنْ يَكُونُوا لَهُ   عَبِيداً وَذَلِكَ أَقْصَى ٱلْأَمَدْ
وَلَـٰكِنَّهُ خَالِقُ ٱلْعَالَمِي   نَ ذَائِبِ أَجْزَائِهِمْ وَٱلْجَمَدْ
تَعَمَّدْهُ يُغْنِكَ بِٱلْهَدْيِ أَنْ   تُدَرِّسَ مُغْنِيَهُمْ وَٱلْعُمَدْ

المُغْنِي ، والعُمَد : كتابان أحدهما فى علم الكلام ، والآخر فى الأصول ، وهما للقاضى عبد الجبار بن أحمد ، من كبار أئمة المعتزلة ، المتوفى سنة خمس عشرة أو ست عشرة وأربعمائة . ولأبى محمد عبد الله بن العباسى الرامَهُرْمزى المعتزلى كتاب اسمه المغنى أيضاً ، إلا أن ذكره مقروناً بالعُمَد يدل على أن المراد الأول .

وقال أبو العلاء :

كَمْ غَيَّرَتْنَا بِأَمْرٍ خُطَّ حَادِثَةٌ   وَرَبُّنَا اللهُ لَمْ تُلْمِمْ بِهِ ٱلْغِيَرُ

obeikandi.com

وقال .

مَا زَالَ رَبُّكَ ثَابِتاً فِي مُلْكِهِ يَنْمِي إِلَيْهِ لِلْعِبَادِ جُؤَارُ

وقال :

وَالْجَهْلُ أَغْلَبُ غيرَ عِلْمٍ أَنَّنَا نَفْنَى وَيَبْقَى الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

وقال فى الإقرار بالذنوب من قطعة :

غُفْرَانَ رَبِّكَ قَلَّ مَا فَعَلَ الْفَتَى ما لَيْسَ مُحْوِجَهُ إلى اسْتِغْفَارِ

صدق والله ، فغفرانك اللهم . وقال :

رَجَزَتْ بِتَسْبِيحِ الْمَلِيكِ حَمَامَةٌ بالشَّامِ تُوطِنُ أَوْ تَحُلُّ حِجَازَا

وَالطَّيْرُ مِثْلُ الإِنْسِ تَعْرِفُ رَبَّهَا وَتَرَى بِهَا الشُّعَرَاءَ وَالرُّجَّازَا

وقال فى معناه :

سَبَّحَ اللهَ نَاعِبٌ ، صَوْتُهُ : غَا قِ ، وَكُدْرِيَّةٌ تَصِيحُ : قَطَا

وقال :

صَنْعَةٌ عَزَّتِ الْأَنَامَ بِلُطْفٍ وَعَزَتْهَا إلى الْقَدِيرِ الْعَوَازِى

مَلِكٌ أَنْشَأَ السَّمَوَاتِ فَالْبَدْ رُ لَدَيْهِ فِي صُورَةِ الْجِلْوَازِ

كَمْ لَهُ كَوْكَبٍ أَبَرَّ وَأَزَّ النَّـ ـاسَ حَتَّى سَطَا عَلَى أَبْرَوَازِ

وقال :

لَنَا رَبٌّ وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ يُسَيِّرُ أَمْرَهُ جَبَلًا وَيُرْسِى

تَظَلُّ الشَّمْسُ مَاهِنَةً لَدَيْهِ فما بِلِقِيسُ أَمْ ماسِتْ برس

وقال :

إذا كُنْتَ بالله الْمُهَيْمِنِ وَاثِقاً فَسَلِّمْ إِلَيْهِ الْأَمْرَ فِي اللَّفْظِ وَاللَّحْظِ

يُدَبِّرُكَ خَلَّاقٌ يُدِيرُ مَقَادِراً   تُخَطِّيكَ إِحْسَانَ الغَمَائِمِ أَو تُخْطِى

وقال :

وَسِرْتُ عُمْرِى إِلَى قَبْرِى عَلَى مَهَلٍ   وَقَدْ دَنَوْتُ فَحَقَّ الْخَوْفُ وَالْهَلَعُ
ما نَحْنُ أَمْ ما بَرَايَا عَالَمٍ كُثُرٍ   فِى قُدْرَةٍ بَعْضُهَا الأَفْلَاكَ يَبْتَلِعُ

وقال :

نَدِينُ بِأَنَّ اللهَ وِتْرٌ وخَوْفُهُ   رَشَادٌ فَصَلُّوا الْوِتْرَ فِى الدَّهْرِ والشَّفْعَا

وقال :

الْأَرْضُ لِلهِ ما اسْتَحْيِ الْحُلُولُ بِهَا   أَنْ يَدَّعُوهَا وَهُمْ فِى الدَّارِ أَضْيَافُ
تَنَازَعُوا فِى عَوَارِىٍّ فَبَيْنَهُمُ   نَبْلٌ حُطَامٌ وَأَرْمَاحٌ وَأَسْيَافُ
إِنْ خَالَفُوكَ وَلَمْ يَجْزُرْ خِلَافُهُمُ   شَرًّا فَلَا بَأْسَ إِنَّ النَّاسَ أَخْيَافُ

أخياف : أى مختلفون ، ومنه : إخوة أخياف ، إذا كانت أمهم واحدة وآباؤهم شتى ؛ فإذا كانوا لأب واحد من أمهات شتى ، قيل : هم أبناء علات .

وقال فى معنى ما تقدم :

هُوَ الْفَلَكُ الدَّوَّارُ أَجْرَاهُ رَبُّهُ   عَلَى مَا تَرَى مِنْ قَبْلِ أَنْ تَجْرِىَ الْفُلْكُ
لَهُ الْعِزُّ لَمْ يَشْرَكْهُ فِى الْمُلْكِ غَيْرُهُ   فَيَا جَهْلَ إِنْسَانٍ يَقُولُ : لِىَ الْمُلْكُ

ومثله قوله :

وَيَقُولُ دَارِى مَنْ يَقُولُ وَأَعْبُدِى   مَهْ فَالْعَبِيدُ لِرَبِّنَا وَالدَّارُ

وقوله أيضا :

وَالْمُلْكُ لِلهِ مَنْ يَظْفَرْ بِنَيْلِ غِنًى   يَرْدُدْهُ قَسْراً وَتَضْمَنْ نَفْسُهُ الدَّرَكَا
لَوْ كَانَ لِى أَوْ لِغَيْرِى قَدْرُ أُنْمُلَةٍ   مِنَ التُّرَابِ لَكَانَ الْأَمْرُ مُشْتَرَكَا

obeikandi.com

ذكر الإسحاقى فى تاريخه أن السلطان سليما العثمانى لما فتح مصر نزل بالروضة فى مكان أعد له بالمقياس ، ونقل عن القطبى أنه رأى هذين البيتين مكتوبين بخطه بأعلى المقياس على الرخام الأبيض كتابة خفية لا تكاد تظهر إلا بالتأمل ، ومرقوم تحتهما : كتبه الفقير سليم . ثم قال : ولعمرى إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما فى غاية البيان والبراعة ، ونهاية فى الشعر العربىّ الفصيح المنسجم ؛ وإن كان تمثل بهما فهما أيضاً مرتبة عالية فى حسن التمثيل ولطف الاستحضار . انتهى . قلت : أما كونهما له فقد ثبت خلافه ؛ فلم يبق إلا أنه تمثل بهما . وما هو بكبير على فضل هذا السلطان واطلاعه . وسلاطين آل عثمان ، وإن اشتهر عنهم قلة الاهتمام باللغة العربية ، فقد نبغ منهم جماعة فيها . منهم : السلطان محمد الفاتح ؛ وفضله فى الاشتغال بالعربية غير منكور . ومن شيوخه المولى خواجه زاده ، قرأ عليه متن عن الدين الزنجانى فى التصريف ؛ وكانت العلماء تجتمع عنده للمناظرة ، وتعجبه مباحثاتهم . ويحكى أنه كان فى صغره غير مهتم بالطلب ، فأمر والده السلطان مراد المولى شمس الدين الكورانى بالتشديد عليه ، فصدع بأمره ، حتى ضربه مرة ضرباً موجعاً ، ولم يزل به حتى ختم القرآن الكريم فى مدة يسيرة . ومنهم : السلطان مراد الثالث ابن سليم المتوفى سنة ١٠٠٣ . كان أجمل أهل بيته علماً وأدباً وذكاء وفهماً . اشتغل بالتصوف وبرع فيه ، ونظم الشعر باللغات الثلاث : الفارسية والتركية والعربية . ومنهم : السلطان أحمد بن محمد حفيد السلطان مراد المارّ ذكره . كان من فضلاء وقته ، مال للأدب والمحاضرات ، ونظم الشعر بالتركية . ومما يروى له من الشعر العربىّ قوله :

ظَبْيٌ يَصُولُ وَلَا وُصُولَ إِلَيْهِ جَرَحَ ٱلْفُؤَادَ بِصَارِمَيْ لَحْظَيْهِ

مَا قَامَ مُعْتَدِلًا وَهَزَّ قَوَامَهُ ... إِلَّا تَهَتَّكَتِ السُّتُورُ عَلَيْهِ
يَسْقِي الْمُدَامَةَ مِنْ سُلَافَةِ رِيقِهِ ... وَيَخُصُّنَا بِالْغُنْجِ مِنْ جَفْنَيْهِ
عَيْنَاهُ نَرْجِسُنَا وَآسُ عِذَارِهِ ... رَيْحَانُنَا وَالْوَرْدُ مِنْ خَدَّيْهِ
يَاشَعْرُ فِي بَصَرِي وَلَا فِي خَدِّهِ ... إِنِّي أَغَارُ مِنَ النَّسِيمِ عَلَيْهِ
عَجَبِي لِسُلْطَانٍ يُعِزُّ بِعَدْلِهِ ... وَيَجُورُ سُلْطَانُ الْغَرَامِ عَلَيْهِ
لَوْلَا أَخَافُ اللهَ ثُمَّ جَحِيمَهُ ... لَعَبَدْتُهُ وَسَجَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ

والبيتان الأخيران من قصيدة لابن رزيك الشيعي ، أتى بهما السلطان على سبيل التضمين .

رَجْع إلى شعر أبي العلاء

فمن دلائل إيمانه بالله ، وتفويضه الأمر إليه ، قوله :

رَدَدْتُ إِلَى مَلِيكِ الْخَلْقِ أَمْرِي ... فَلَمْ أَسْأَلْ مَتَى يَقَعُ الْكُسُوفُ
فَكَمْ سَلِمَ الْجَهُولُ مِنَ الْمَنَايَا ... وَعُوجِلَ بِالْحِمَامِ الْفَيْلَسُوفُ

وقال :

وَالرُّوحُ طَائِرُ مَحْبِسٍ فِي سِجْنِهِ ... حَتَّى يَمُنَّ رَدَاهُ بِالْإِطْلَاقِ
سَيَمُوتُ مَحْمُودٌ وَيَهْلِكُ آلِكٌ ... وَيَدُومُ وَجْهُ الْوَاحِدِ الْخَلَّاقِ

وقال :

أَزُولُ وَلَيْسَ فِي الْخَلَّاقِ شَكٌّ ... فَلَا تَبْكُوا عَلَيَّ وَلَا تُبَكُّوا
خُذُوا سِيَرِي فَهُنَّ لَكُمْ صَلَاحٌ ... وَصَلُّوا فِي حَيَاتِكُمُ وَزَكُّوا

وقال :

تَسَمَّتْ رِجَالٌ بِالْمُلُوكِ سَفَاهَةً ... وَلَا مُلْكَ إِلَّا لِلَّذِي خَلَقَ الْمُلْكَا

أَرَى فَلَكًا مَا دَارَ إِلَّا لِحِكْمَةٍ ... فَلَا تَنْسَ مَنْ أَجْرَى لِحَاجَتِكَ الْفُلْكَا

وقال :

إِنْ يُرْسِلِ النَّفْسَ فِى اللَّذَّاتِ صَاحِبُهَا ... فَمَا يُخَلِّدْنَ صُعْلُوكًا وَلَا مَلِكَا
وَمَنْ يُطَهِّرْ بِخَوْفِ اللهِ مُهْجَتَهُ ... فَذَاكَ إِنْسَانُ قَوْمٍ يُشْبِهُ الْمَلَكَا

وقال :

شِفَاءَ مَا بِكَ أَعْيَانِى وَأَعْيَا كَا ... فَأَرْجُ الَّذِى هُوَ أَبْدَانِى وَإِيَّا كَا
مَالِى أَرَاكَ غَبِيًّا لَسْتَ تَقْدِرُ أَنْ ... تُحْصِى خُطَاكَ فَهَلْ تُحْصِى خَطَايَا كَا

وقال :

يَا خَالِقَ الْبَدْرِ وَشَمْسِ الضُّحَى ... مُعَوِّلِى فِى كُلِّ حَالِى عَلَيْكْ
وَكُلُّ مَلْكٍ لَكَ عَبْـــدٌ وَمَا ... يَبْقَى لَهُ مُلْكٌ فَيُدْعَى مُلَيْكْ
قَدْ رَامَتِ النَّفْسُ لَهَا مَوْئِلًا ... فَقُلْتُ : مَهْلًا، لَيْسَ هَذَا إِلَيْكْ
إِنَّ الَّذِى صَاغَكِ يَقْضِى بِمَا ... شَاءَ وَيُمْضِى فَارْجُرِى عَاذِلَيْكْ
الْبَحْرُ فِى قُدْرَتِهِ نُغْبَـــةٌ ... وَالْفَلَكُ الْأَعْظَمُ فِيهَا فُلَيْكْ

وقال :

إِلَهَ الْأَنَامِ وَرَبَّ الْغَمَامِ ... لَنَا الْفَقْرُ دُونَكَ وَالْمُلْكُ لَكْ

وقال :

فَلَا تَسْأَلِ الْمَرْءَ الْغَنِىَّ عَطَاءَهُ ... وَرَجِّ الْغِنَى مِنْ رَبِّكَ الْمُتَعَالِى

وقال :

أَمَا تَرَى الشُّهْبَ فِى أَفْلَاكِهَا انْتَقَلَتْ ... بِقُدْرَةٍ مِنْ مَلِيكٍ غَيْرِ مُنْتَقِلِ

وقال :

نَمُوتُ لِأَنَّنَا خُلَفَاءُ نَقْصٍ ... وَيَبْقَى مَنْ تَفَرَّدَ بِالْكَمَالِ

وقال :

حِكَمٌ تَدُلُّ عَلَى حَكِيمٍ قَادِرٍ مُتَفَرِّدٍ فِي عِزِّهِ بِكَمَالِ

وقال :

تَوَهَّمَ بَعْضُ ٱلْقَوْمِ وَهْماً فَأَصَّلُوا يَقِينَ أُمُورٍ بَاتَ يَتْبَعُهَا ٱلْوَهْمُ
جَهِلْنَا ، وَلَـٰكِنْ لِلْخَلَائِقِ صَانِعٌ أَقَرَّ بِهِ فَسْلٌ مِنَ ٱلْقَوْمِ أَوْ شَهْمُ

وقال فى رد تأثير الأشياء لله تعالى :

وَقَدْ يَأْمُرُ ٱللهُ ٱلْكَهَامَ إِذَا نَبَا فَيَفْرِي وَقَدْ يَنْهَى ٱلْحُسَامَ فَيَكْهَمُ

وزاد هذا المعنى وضوحا بقوله وأجاد :

لَوْ يَنْطِقُ السَّيْفُ نَادَى لَيْسَ لِي عَمَلٌ قَضَى مَالِكُ ٱلْأَفْلَاكِ أَنْضَانِي
مَتَى أَرَادَ فَصَفْحَايَ اللَّذَانِ هُمَا بَحْرُ الرَّدَى مِنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ حَوْضَانِ
وإن كَهَمْتُ فَأَمْرُ اللهِ أَكْهَمَنِي وَإِنْ مَضَيْتُ فَأَمْرُ اللهِ أَمْضَانِي

وقال :

مَا فِي بَنِي آدَمٍ غَنِيٌّ بَلْ كُلُّهُمْ مُقْتِرٌ عَدِيمُ
يَغْنَى الذى مَا لَهُ فَنَاءٌ وَذَلِكَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَدِيمُ

وقال :

رَأَيْتُ سَجَايَا النَّاسِ فِيهَا تَظَالُمٌ وَلَا رَيْبَ فِي عَدْلِ الَّذِي خَلَقَ الظُّلْمَا

وقال :

فَسَادٌ وَكَوْنٌ حَادِثَانِ كِلَاهُمَا شَهِيدٌ بِأَنَّ الخَلْقَ صُنْعُ حَكِيمِ

وقال :

أَبِالْقَدَرِ ٱلْمُتَاحِ تَدِينُ جِنٌّ تَسَمَّعُ غَيْرَ هَائِبَةِ الرُّجُومِ

وَتَعْلَمُ أَنَّ مَالَمْ يُقْضَ صَعْبٌ فَمَا تَخْشَى الْمَنِيَّةَ فِي الْهُجُومِ
بِإِذْنِ اللَّهِ يَنْفُذُ كُلُّ أَمْرٍ فَنَهْنِهِ فَيْضَ أَدْمُعِكَ السُّجُومِ
يَجُوزُ بِحُكْمِهِ مَوْتُ الثُّرَيَّا وَأَنْ تَبْقَى السَّمَاءُ بِلَا نُجُومِ
وَكَمْ وَجَمَ الْفَتَى مِنْ بَعْدِ ضِحْكٍ وَأَضْحَكَ بَعْدَ إِفْرَاطِ الْوُجُومِ

وقال :

إِذَا مَدَحُوا آدَمِيًّا مَدَحْـ ـتُ مَوْلَى الْمَوَالِي وَرَبَّ الْأُمَمْ
وَذَاكَ الْغَنِيُّ عَنِ الْمَادِحِينَ وَلَكِنْ لِنَفْسِي عَقَدْتُ الذِّمَمْ
لَهُ سَجَدَ الشَّامِخُ الْمُشْمَخِرُّ عَلَى مَا بِعِرْنِينِهِ مِنْ شَمَمْ
وَمَغْفِرَةُ اللَّهِ مَرْجُوَّةٌ إِذَا حُبِسَتْ أَعْظُمِي فِي الرِّمَمْ

وقال :

أَدِينُ بِرَبٍّ وَاحِدٍ وَتَجَنُّبٍ قَبِيحَ الْمَسَاعِي حِينَ يَظْلِمُ دَائِنُ

وقال :

إِذَا مَا شِئْتُمُ دَعَةً وَخَفْضًا فَعِيشُوا فِي الْبَرِيَّةِ خَامِلِينَا
وَلَا يُعْقَدْ لَكُمْ أَمَلٌ بِخَلْقٍ وَبِيتُوا لِلْمُهَيْمِنِ آمِلِينَا

وقال :

مَطِيَّتِي الْوَقْتُ الَّذِي مَا امْتَطَيْتُهُ بِوُدِّي وَلَكِنَّ الْمُهَيْمِنَ أَمْطَانِي
وَمَا أَحَدٌ مُعْطِيَّ وَاللَّهُ حَارِمِي وَلَا حَارِمِي شَيْئًا إِذَا هُوَ أَعْطَانِي

وقال :

لَعَمْرِي لَخَيْرُ الذُّخْرِ فِي كُلِّ شِدَّةٍ إِلَهُكَ تَرْجُو فَضْلَهُ وَآلَاءَهُ
وَلَا مُلْكَ إِلَّا لِلَّذِي عَزَّ وَجْهُهُ وَدَامَتْ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ عُلَاهُ

وقال :

تَهَجَّدَ مَعْشَرٌ لَيْلًا وَغَنَّا ... وَفَازَ بِجِنْدِسٍ مُتَهَجِّدُوهُ

إِلَهُكَ أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ جَمْعًا ... فَلَا يَفْخَرْ بِشَيْءٍ مُوجِدُوهُ

وَرَبُّكَ أَنْجَدَ الْأَقْوَامَ حَتَّى ... بَنَى أَعْلَى الْقُصُورِ مُنَجِّدُوهُ

فَمَجِّدْهُ فَلَمْ يَخْسَرْ أُنَاسٌ ... أَنَابُوا لِلْمَلِيكِ وَمَجَّدُوهُ

ولنختم هذا الفصل بقوله :

تَشَابَهَتِ الْأَشْيَاءُ طَبْعًا وَصُورَةً ... وَرَبُّكَ لَمْ يُسْمَعْ لَهُ بِشَبِيهِ

هذه أقوال من يتهمه المتخرصون بإنكار الإله ، سقناها إليك لتكرر النظر فيها المرة بعد المرة ، ثم نكلك إلى محاسبة نفسك ، ومحاكمة فكرك ؛ هل ترى فيها غير التوحيد والتنزيه ، وإجلال اسمه تعالى ، والطمع فى رحمته ، والخوف من عقابه ، والحض على التقوى ، والإنكار على الملحدين ؟

ولا نخالك بعد ذلك إلا منصفه ، إن كنت من المخلصين .

فصل فى معتقده فى النبوات والرسل

يتهم الكثيرون أبا العلاء بجحد النبوات ، وعدم الإيمان بالبعث والنشور ؛ وكثيراً ما يتعمدون تحريف كَلِمِه ، أو صرف ظاهره إلى غير مراده ، افتياتاً عليه ، وانتصاراً لمدعاهم . فضلاً عما وضعوه على لسانه من الكذب والبهتان ، كما أثبته نَقَلَة أخباره . وقد مر بك حديثه مع القاضى المنازى ، وكيف اقتضبه الرواة ليثبتوا إلحاده وإنكاره للآخرة . ونقل ياقوت والسلوى عن القاضى أبى يوسف عبد السلام القزوينى أنه قال : « قال لى المعرى : لم أهج أحداً قط . فقلت : صدقت ، إلا الأنبياء عليهم السلام ! فتغير لونه . أو قال : وجهه . اه » ولا أدرى ماذا يثبته هذا الحديث أو ينفيه .

وإليك ما ذكره العلامة ابن الوردى فى تتمة المختصر ، وهو من أدق الباحثين فى أمره . قال : « قال لى يوماً بعض أصحابى من الأمراء ذوى الفهم : كيف كان أبو العلاء فى اعتقاد البعث ؟ فأنشدته قوله :

فَيَا وَطَنِى إِنْ فَاتَنِى مِنْكَ سَابِقٌ ... مِنَ ٱلدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ لِسَاكِنِكَ ٱلْبَالُ

وَإِنْ أَسْتَطِعْ فِى ٱلْحَشْرِ آتِكَ زَائِراً ... وَهَيْهَاتَ ، لِى يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَشْغَالُ

وبلغنى أن بعضهم زعم أن أبا العلاء كان ينكر النبوات ، فهذا مردود بقول أبى العلاء :

عَجِبْتُ وَقَدْ جُزْتِ الصَّرَاةَ رِفَلَّةً ... وما خَضلتْ مما تسرْبَلْتِ أَذْيَالُ

أَعُمْتِ إِلَيْنَا أَمْ فِعَالَ ابنِ مَرْيَمٍ ... فعلتِ ، وهل يُعْطَى النُّبُوَّةَ مِكْسَالُ

وقوله فى شريف :

يا ٱبْنَ ٱلَّذِى بِلِسَانِهِ وَبَيَانِهِ ... هُدِىَ ٱلْأَنَامُ وَنُزِّلَ التَّنْزِيلُ

عَنْ فَضْلِهِ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبَشَّرَتْ   بِقُدُومِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ

وقال فى الشريف أبى إبراهيم العلوى الموسوى :

يَا ابْنَ مُسْتَعْرِضِ الصُّفُوفِ بِبَدْرٍ   وَمُبِيدِ الْجُمُوعِ مِنْ غَطَفَانِ
أَحَدِ الْخَمْسَةِ الَّذِينَ هُمُ الأَغْـ   ـرَاضُ مِنْ كُلِّ مَنْطِقٍ وَالْمَعَانِي
وَالشُّخُوصِ الَّتِي خُلِقْنَ ضِيَاءً   قَبْلَ خَلْقِ الْمِرِّيخِ وَالْمِيزَانِ
قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ السَّمَوَاتُ أَوْ تُؤْ   مَرَ أَفْلَاكُهُنَّ بِالدَّوَرَانِ
وَافَقَ اسْمُ ابْنِ أَحْمَدَ اسْمَ رَسُو   لِ اللهِ لَمَّا تَوَافَقَ الْمَعْنَيَانِ
يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ قَصَّرَ عَنْكَ الشِّـ   ـعْرُ لَمَّا وُصِفْتَ بِالْقُرْآنِ
أُشْرِبَ الْعَالَمُونَ حُبَّكَ طَبْعاً   فَهْوَ فَرْضٌ فِي سَائِرِ الأَدْيَانِ

وقوله :

أَيَدْفَعُ مُعْجِزَاتِ الرُّسْلِ قَوْمٌ   وَفِيكَ وَفِي بَدِيهَتِكَ اعْتِبَارُ »

انتهى كلام ابن الوردى . وما ذكره من الشعر منقول من سقط الزند .

ولقائل أن يقول ما لكم تنتصرون للرجل بكلامه فى سقط الزند ، وهو لم يقصد به بياناً لمذهبه ، أو شرحاً لمعتقده ، بل جرى فيه مجرى الشعراء فى أفانينهم الشعرية ، وأخرجه مخرج هيامهم فى كل واد من القول وضرب من الخيال ؛ وهم كما تعلمون يجوّزون الكذب ، ويقولون ما لا يفعلون ؛ فشأنه فى ذلك شأنهم ودعواه دعواهم ؛ فإذا مدح شريفاً لم يكن له بد من تقديس آبائه ، والإقرار لجدهم عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة ، تعظيما لشأن الممدوح ؛ كما لا مندوحة له فى الرثاء عن وصف ما لقيه المرثى من التكريم فى جنات النعيم ، ليكون قوله مقبولا لدى من يخاطبهم ، وأدعى للحظوة عندهم ، وإن لم يكن هو معتقداً له .

obeikandi.com

وما يقال فى هذا يقال فى غيره ، وإلّا للزمكم أنه كان على غير ما تَدَّعُون له من الزهد والتقوى ، لما أثبته فى هذا الديوان من الغزل والتشبيب و بكاء الشباب والفخر ، وهى والزهد على طرفى نقيض . فلو اقتصرتم على ما فى لزوم ما لا يلزم ونحوه من الكتب التى وضعها لبيان فلسفته وآرائه ، لسلمتم من مثل هذا النقد .

ونقول فى رد ذلك : وبما كان لما ذكرتَ وجه من الصحة ، إلاّ أنا لما رأينا كم آخذتم الرجل على بعض ما جاء فى هذا الديوان ، واستدرجتم به إلى الطعن فى عقيدته ، مع أنه لا يخرج عن الغلو المألوف للشعراء كما بيناه آنفاً — استجزنا أيضاً أن نحجّكم بما جاء فيه من صريح ذكر الحشر ، والإيمان بالرسل وإثبات المعجزات لهم عليهم السلام . وشتان ما بين حجتينا . على أن ما ادعيتموه لا يصح الحكم به على مطلق شعر يقوله الشاعر ، وإلّا فالويل للشعر والشعراء بعدئذ .

* * *

وبعد ، فإنا لم نحكم لأبى العلاء بصحة إيمانه بالرسل والنبوات إلا من أقواله المثبتة لذلك ، المصرحة به . فلا ريب فى أن ما يوهم فى ظاهره نقيضها من أقواله الأخرى ، مؤول بما يحتمله لفظه ؛ وكثير منها لم يرد به الطعن على الأديان نفسها ، بل أراد أهلها ومنتحليها ، لتفريطهم فيها أو إفراطهم ، كما صرّح به فى أقوال أخرى ، سنأتى عليها فى هذا الفصل .

وقد رأيت بعض المتعصبين عليه يظفر بالبيت الموهم ، فيرويه فذّاً من غير نظر لما قبله أو بعده . ولو تدبر ذلك لظهر له مراده ، ولم يجد سبيلا للطعن عليه .

على أنا مع هذا لا نبرئه رحمه الله من بعض سقطات زلّ بها لسانه ، ليس فيها جحد للنبوات ، ولكن ذكرها لا يخلو من شناعة . فكان الأولى له التفادى عن نظمها فى هذا السمط . ولا مشاحة فى عذر من أنكر عليه فيها ، وإنما

كلامنا فيمن يرميه بالإلحاد ، وهو براء منه ، بدليل ما ذكرناه من كلامه وما سنذكره .

***

أما من استدل على إنكاره النبوات ، وتحكيمه العقل فى التحسين والتقبيح ، بقوله :

عَلِمَ ٱلْكائِنَاتِ فِي كلِّ وَجْهٍ … أَوَّلٌ عِنْدَهُ السِّماكُ صَبِيٌّ
خَالِقُ النَّيِّرَاتِ ما يَتَغَابَى ٱلْ … عَبْدُ لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ غَبِيٌّ
أَيُّهَا ٱلْغِرُّ إنْ خُصِصْتَ بعَقْلٍ … فَاسْأَلَنْهُ فَكلُّ عقْلٍ نَبِيٌّ

فقد أخطأ المرمى ، ونكب عن سبيل القصد ، فإن مراده بقوله « فكل عقل نبى » أن العقل كاف فى الإخبار والدلالة على وجود صانع لهذه الكائنات ، ولا عذر للعبد فى جهله بخالقه ، ما دام له عقل ينظر به و يستخبره ، كما يدل عليه سياق الأبيات عند التأمل .

وهذه المسألة من المسائل التى قام فيها الخلاف بين أئمة الكلام ، وانقسم فيها أهل السنة إلى قسمين . فذهب جمهور الماتريدية وعامة مشايخ سمرقند إلى أنه تعالى لو لم يبعث للناس رسولاً لوجب عليهم بعقولهم معرفة وجوده تعالى ووحدته واتصافه بما يليق به من الحياة والعلم والقدرة وغيرها ، وكونه محدثاً للعالم ؛ وهو أيضاً أرجح قولى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . وذهب جمهور مشايخ الأشاعرة إلى أنه لا يجب إيمان ولا يحرم كفر قبل بعث الرسل . ولا يرد على الأول أنه لو كان العقل حجة كافية ما أرسل الله الرسل ، ولا كتفى به ؛ لأنه يقال فى جوابه : لما كان أمر البعث والجزاء مما يشكل على العقل وحده ، إلا بعظيم تأمل فيه ، وكذلك أنواع العبادات والحدود ونحوها لا تنال بمجرد العقل — كان إرسال

الله تعالى رسله و إنزال كتبه ، لبيان ذلك . وأصل الخلاف إنما هو فى الإيمان بالله ، لا فى أحكام الشرائع . فإن قيل لو كان العقل كافياً فى ذلك لاقتصرت الشرائع على بيان ما ذكرتم ، ولم تتعرض لأحكام الإيمان بالله تعالى وتنزيهه ، واتصافه بصفاته اللائقة ونحوها ، اكتفاء بدلالة العقل عليها . قلنا : كان ذلك لزيادة التمكين وتتمة البيان ، من قبيل توارد الأدلة وتعاقبها . فإنه تعالى لم يدعنا والبيان بآية واحدة ، بل مَنَّ علينا سبحانه بآيات متكررة . وكذلك لم يدعنا ورسولاً واحداً من أول الأمر إلى آخره ، والحجة كانت قائمة بالواحد ، كما بقيت بنبينا عليه الصلاة والسلام إلى القيامة ؛ فلا يدل ذلك على أن الرسول الواحد أو الآية الواحدة لم يكونا حجة كافية .

هذا محصل ما ذكروه فى هذا المقام ، ولكل من الفريقين أدلة من الكتاب والسنة يحتج بها لمذهبه ، فاطلبها إن شئت فى كتب الكلام ، خصوصاً فيما ألف منها فى الخلاف بين الماتريدية والأشعرية ؛ وانظرها أيضاً فى كتب التفسير عند قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » .